مجلة المجمع العلمي العربي

٢٣

الجزء ١١ تشرين الثاني سنة ١٩٢٢ م الموافق ربيع الأول سنة ١٣٤١ هـ المجلد ٢

تفسير الالفاظ العباسية

— في نشوار المحاضرة —

٢

« الطيـــار »

وفي (ص ١٦) : « فرأيته على روشن داره على دجلة في وقت حار من يوم شديد الحرارة وهو حافٍ حائر يعدو من أول الروشن إلى آخره فطرحت طياري اليه وصعدت بغير اذن» . وفي (ص ٣٩): « فعدل في الازقة إلى سيحان[1] ليركب منها طياره » . وفي (ص ١٠٣): « فعبر في طيار وانا معه » . وفي (ص ١٠٤): « وأنفذ في إشخاصي خادماً من كبار خدم السيدة فجاءَ في طيار وأمر هائل » . وفي (ص ١١٩): « ونهض والكتّاب معه وجاء إلى طياره وهو لا يشك في الصرف فصعد إلى ابن الفرات » . وفي (ص ١٣١ — ١٣٢): « فكنت جالساً يوماً اذ جاءني بوابي وقال : طيار عريب بالباب وهي تستأذن فعجبت من ذلك وارتاح قلبي إليها فقمت حتى نزلت بالشط فاذا هي جالسة في طيارها » . وفي (ص ١٣٣) : « ثم قامت لتنصرف فشيعتها إلى دجلة فلما ارادت الجلوس في طيارها » . وفي (ص ١٣٨): « حضرت في بعض أيام المواكب باب دار الخلافة فوقفت في طياري والقضاة في طياراتهم » وفي آخر الصفحة : « وكنا

(١) اسم نهر بالبصرة كما في حاشية الكتاب .

في طياراتنا اذ خرج خلفاء الحجاب يطلبونني » وفي (ص ١٤٩) تكرر ذكر الطيار مرتين وكذلك في (ص ١٥٠) . وفي (ص ٢١٢) : « فلما نزل في طياره قال أخبرني بما جرى » .

قلنا : وورد الطيار في مواضع أخرى من الكتاب لم نر فائدة من الاشارة إليها . ويفهم من بعض ما تقدم انه شيء يركب ومن بعضه انه نوع من السفن ولم يرد بهذا المعنى في معاجم اللغة التي بايدينا . ومما يؤيد انه نوع من السفن قول هلال الصابىء في تاريخ الوزراء (ص ١٩) « ارزاق الملاحين في الطيارات والشذآءات والسميريات والحراقات والزلالات وزواريق المعابر » . فان قيل قد انشد الراغب في محاضراته (ج ٢ ص ٨) لجحظة البرمكي :

قل للوزير ادام الله دولته اذكر منادمتي والخبز خشكار
اذ ليس بالباب برذون لدولتكم ولا غلام ولا بالباب طيار

ويؤخذ منه انه أراد به غير السفينة. قلنا ان صحت هذه الرواية فالمراد بالباب الثاني باب القصر المشرف على دجلة على أن رواية صاحب اليتيمة في البيتين وذكرانها قيلا في الوزير المهلبي (ج ٢ ص ٩) :

قل للوزير أدام الله دولته اذكرتنا أدمنا والخبز خشكار
اذ ليس في الباب بواب لدولتكم ولا حمار ولا في الشط طيار

انتهى . ويكثر ورود الطيار في كتب الأدب والتاريخ بما يفهم منه انه زورق فخم لركوب العظماء والظاهر انهم سموه بذلك لأنه من السفن الخفيفة السريعة الجريان كأنها لسرعتها تطير على وجه الماء ، ومنه تسمية ريسان الخولاني لفرسه بالطيار لسرعة عدوه أو تفاؤلاً له بذلك . واستعمال الطيران للسرعة مألوف في كلام العرب والمولدين ومنه قول ابن نباتة السعدي في فرس أدهم اغر محجل واجاد :

وادهم يستمد الليل منه وتطلع بين عينيه الثريا
سرى خلف الصباح يطير مشياً ويطوي خلفه الافلاك طيا
فلما خاف وشك الفوت منه تشبث بالقوائم والمحيا

وفي أحسن التقاسيم للمقدسي في اختلاف لغات أهل الاقاليم (ص ٣١) ان الطيار

هو الزبزب وذكر أسماء كثيرة له تختلف باختلاف الاقاليم منها المعبر والقارب. ولم تفسر المعاجم الزبزب بسوى ضرب من السفن إلا أن صاحب شفاء الغليل قال فيه عن ياقوت انه سفينة صغيرة وأنشد لبعضهم :

زبازب تحكي إذا سيّرت عقارباً تجري على زئبق

وفي الأغاني (ج ٢١ ص ٢٣٧) : « وحدثني رجل من أهل البصرة كان يألف مخارقاً ويصحبه قال : كنت معه مرة في طيار ليلاً وهو سكران فلما توسط دجلة اندفع بأعلى صوته فغنى فما بقي أحد في الطيار من ملاح ولا غلام ولا خادم إلا بكى من رقة صوته ورأيت الشمع والسرج من جانبي دجلة في صحون القصور والدور يتساعون بين يدي أهلها يستمعون غناءَه » .

وفي مروج الذهب (ج ٢ ص ٤٢٠ - ٤٢١ من طبعة بولاق . و ج ٨ ص ٣٧٧ من طبعة باريس) ان المستكفي لما بويع بالشبق وهي على نهر عيسى انحدر في الماء راكباً في الطيار الذي يسمى الغزال[1] . الا أنه ذكر في خلافة المتقي ما يعلم منه اطلاق الطيار على نوع من سفن القتال أيضاً فقال : « واشتد أمر البريديين بالبصرة ومنعوا السفن ان تصعد وعظم جيشهم وكثرت رجالهم وصار لهم جيشان جيش في الماء في الشذوات[2] والطيارات والسميريات والزبازب وهذه أنواع من المراكب يقاتل فيها صغار وكبار » .

فوضح بهذا معنى الطيار والمراد منه وبقي شيءٌ عن لفظه وقد بينا انه مشتق من الطيران والمراد به السرعة أي أنه عربي المادة والصياغة بما لا يحتمل الشك فلا يضره كونه مولداً في الاستعمال إلا أننا رأينا المعاجم الفارسية ذكرت (الطياره) مضبوطة بفتح الاول وتخفيف الياء لنوع من السفن فهل لنا أن نقول بتعريب الطيار عنها بعد تغييره تغييراً قليلاً . اللهم إنا لا نذهب لذلك ولا نقول به وان اتحدا في اللفظ والمعنى بل الأظهر أن تكون (الطياره) دخيلة في الفارسية من العربية ولا غرابة في ذلك فان الفارسية الحديثة دخلتها ألفاظ عربية كثيرة ولا سيما بعد اختلاط الامتين في العصر

(١) في نسخة بولاق الغزالة . (٢) تقدم في عبارة تاريخ الوزراء والشذآءات والذي في معاجم اللغة ان الواحدة شذاة أو شذاوة والجمع شذا أو شذاوات .

الاسلامي فلا ينبغي لنا التسرع في الحكم بتعريب لفظ عنها إلا بعد التدقيق الشديد وقيام الادلة القاطعة على اصالته في الفارسية .

ولزيادة الفائدة نذكر أنهم استعملوا الطيار أيضاً لمعيار الذهب لأنه على شكل طائر واستعملوه أيضاً لنوع من الموازين لا لسان له ذكر ذلك المطرزي في شرحه على المقامات .

(المزمّلة والخيازر)

وفي (ص ٢٣) : « أنا وجدنا له في جملة قماشه سبعمائة مزمّلة خيازر فما ظنك بمروءة وقماش يكون هذا في جملته » . وفي (ص ٦٠) : « عمد إلى ما عنده من دبيقي وقصب وحرير ومزملات وآلة صيف فيفعل به مثل ذلك » . وربما يسبق إلى الذهن من ذكر المزملة في العبارتين مع القماش والدبيقي والحرير انها نوع من الثياب الثمينة والصحيح أن المراد بالقماش هنا متاع البيت وبالمزملة اناء الماء . ومما يرشد إلى معنى المزملة قول هلال الصابىء في تاريخ الوزراء (ص ١٥٩) « ودار كبيرة للشراب وفيها ماذيان[1] يجعل فيه الماء المبرد ويطرح فيه[2] الثلج كدراً ويسقى منه جميع من يريد الشرب الرجالة والفرسان والاعوان والخزان ومن يجري مجرى هذه الطبقة من الاتباع والغلمان . ومزملات فيها الماء الشديد البرد » ولكن غاية ما أرشدنا إليه انها اناءٌ فيه ماء بارد ولم يذكر لنا من وصفها شيئاً. وإذا بحثنا في المعاجم التي بايدينا وجدناها تقول « المزملة كمعظمة التي يبرد فيها الماء من جرة أو خابية خضراء قال المطرزي في شرح المقامات وهي لغة عراقية يستعملها أهل بغداد كما في العباب» كذا في القاموس وشرحه ولم يذكرها اللسان بهذا المعنى. ولا يخرج ما في شفاء الغليل وقصد السبيل عن ذلك وقولهم عراقية أي في اطلاقها على هذا الاناء وان كانت عربية المادة والصياغة لانها مشتقة من التزميل وهو تلفيف الشيء بثوب ونحوه ومن شرط هذا الاناء ان يجعل له غلاف يحيط به كما سيأتي بيانه . وأما قولهم نقلاً عن المطرزي انها جرة يبرد فيها الماء ففيه

(١) كذا في الاصل وترجم في آخر الكتاب بانه شيء يبرد فيه الماء .

(٢) في الاصل (في) .

اقتضاب لعبارته وصرف لها عما أراد واليك نص ماقاله في شرح المقامة الثانية والاربعين « المزملة عند البغداديين جرة أو خابية خضراءُ في وسطها ثقب مركب فيه قصبة فضة أو رصاص يشرب منها سميت بذلك لأنها تزمل أي تلف بشيء من الخيش أو غيره ويجعل فيا بينه وبين خزفها التبن تكون في دورهم أيام الصيف يبرد الماء ليلاً بالبرادات ثم يصب في هذه المزملة فيبقى بارداً » وبه يتضح معنى المزملة تمام الوضوح ويعلم منه انها ليست اناءً يبرد فيه الماء كما زعموا أي ليست كالتي تسميها عامة مصر (الثلاجة) [1] بل هي اناء يصب فيه الماء بارداً فيبقى كذلك .

فاذا عرفنا معنى المزملة وانها اناء مغلف بغلاف خاص يجعلها تحفظ مايصب فيها من الماء كما هو عرفنا ان اسلافنا سبقوا للاهتداء إلى ما لم نهتد اليه إلا من وقت قريب فانها بهذا الوصف عين الزجاجة الحافظة لدرجة الماء وان اختلف نوع الجهاز فيها وهي التي نسميها في مصر بالترموس اخذاً من اسمها الانكليزي Thermos bottle . إذا عرفنا هذا بقي علينا ان نعرف معنى الخيازر أهو نوع من الثياب الثمينة التي كانت تجلل بها مزملات العظماء أم شيء آخر . والصحيح انه جمع خيزران كانت تنسج من قضبانه الدقيقة مثل سفيفة تغلف بها المزملات ونحوها على مايظهر ويرجحه ما جاء في النشوار (ص ٢٣) « وانا وجدنا فيها ثلاثين جامة بجازي كل جامة فتحها [2] شبر وكسر في غلف من لب الخيازر مبطنة بالحرير والديباج » أي مغلفة بقصب الخيزران بعد قشر لحائها .

وانشد الراغب في محاضراته للرفّاء في وصف مزملة (ج ٢ ص ٣٣٢)

مجروحة الخصر غير دامية ... كما تكون الجراح والندب
كأنما الماءُ حين تبعثه [3] ... ذوب لجين ميزابه ذهب

وليس فيها شيء من وصفها سوى ان صنبورها في وسطها وانه مذهب . ومن

---

(١) أي التلاجة والعامة تبدل الثاء المثلثة تاءً مثناة في الاكثر .

(٢) لعله (فتحتها) .

(٣) في الأصل (يبعثها) ويجوز ان يكون الصواب (تبعثها) أي انت والمراد تميلها لصب الماء .

مستطرف ماروي عنها في كتاب الظراف والمتماجنين لابن الجوزي ان رجلا سقي ماءً بارداً ثم عاد فطلب فسقي ماءً حاراً فقال لعل مزملتكم تعتريها حمّى الربع .

وقد استعملت المزملة في بعض العصور للحوض الذي يشرب منه ابناءُ السبيل كما يفهم من وصف مزملة عملها المستنصر العباسي ببغداد وورد ذكرها في جزء مخطوط من تاريخ مجهول عندنا . وفي خطط المقريزي (ج ٢ ص ٥٢ من طبعة بولاق) في كلامه على دار المظفر وعثورهم فيها على عتبة من صوان « فبعث بالرجال لهذه العتبة وتكاثروا على جرّها إلى العمارة فجعلها في المزملة التي تشرب منها الناس الماء بدهليز المدرسة الظاهرية » ، والظاهر ان هذه الأماكن كانت توضع فيها مزملات فيها الماء البارد ليشرب الناس منها ثم سمي المكان بها تجوزاً من تسمية المحل باسم الحالّ .

أما ذلك الجهاز الذي يتخذ حول المزملات لجعلها صالحة لحفظ درجة الماء فيجوز لنا ان نسميه بالزمال بكسر الأول وتخفيف الثاني ولكن بشيء من التوسع لأنه في الأصل يقال للقافة الراوية . وقد شاع اطلاق المزمل على الماء المبرد باحاطته بالثلج وسنذكره في كلامنا على (البرادة) .

(المِسْوَرَة)

وفي (ص ٢٧) : « وكانا يشاهدان ابا الحسن في آخر الأوقات في المجالس الحافلة عند باب مفتوح وبين [1] الناس مسورة يستند اليها وعلى الباب ستر قد أرخي حتى بلغ الأرض وغطى المسورة وصار حجاباً بين الناس وبينها » وبعده « مادخلت اليه قط وهو مكشوف الرأس الا اخذ القلنسوة من خلف المسورة ولبسها » . وفي آخر (ص ٢٠٣) « وشرب بعد ذلك رطلاً آخر واتكى على مسورته وكذا كانت عادته إذا سكر » . وفي (ص ٢٥٩) « فيقول له الرجل أيش وراء مسورة مولانا » . وكل ذلك يدل على ان المراد منها نوع من المتكآت أو المساند وفي القاموس وشرحه ان المسور كمنبر والمسورة متكأ من أدم سميت بذلك لعلوها وارتفاعها من قول العرب سار إذا

(١) لعله وبينه وبين الناس .

ارتفع ومثله في الزاهر[١] للزجاجي الاانه جعلها للجلوس او للاتكاء ووردت في الاغاني كذلك (ج ٢١ ص ٣) ونص العبارة « شهدت اسحاق يوماً في مجلس انس وهو يتغنى بهذا الصوت (خليليّ هبّا نصطبح بسواد) وغلامه زياد جالس على مسورة يسقي » . وذكر هلال الصابىء في تاريخ الوزراء (ص٣٢٥)عن ابي الحسن اتخاذه المسورة عندالباب للاتكآء عليها بنحو ماورد في العبارة الأولى الواردة في النشوار ولكن جاء في (ص ٣٥٣) « إذ خرجت ام موسى القهرمانة فجلست على مسورة » . فالظاهر انها كانت تتخذ لهذا ولذاك أو كان منها نوع للاتكآء ونوع للجلوس ومن يتتبع ذكرهم للوسادة في كتب الادب والتاريخ يجدهم يعبرون بها تارة عما يستند اليه واخرى عما يجلس عليه كما فعلوه في المسورة .

(الروز)

وفي (ص ٤٢) : عن اسقاط مال عن رجل كان مطالباً به « فقال المهلبي لابي علي يجب الساعة ان تتقدم إلى الجهبذ ان يكتب له ايده الله روزاً بها وان تجعل انت لها وجوهاً في الخرج » وبعده « فاستدعى الجهبذ واخذ روزه سلمه اليه » . قلنا الجهبذ يقال للنقاد الخبير ولخازن المال المسمى في دواوين مصرا لآن بالصراف . ومعنى الروز في الفارسية اليوم وقد وجدته في بعض التواريخ معبراً به عن صك يكتبه الجهبذ بقبضه المال كما هنا . وهو مختصر في الروزنامج معرب روزنامه أي كتاب اليوم لانه يكتب فيه مايقع كل يوم من دخل أو خرج أو حادثة أو غير ذلك فكأنهم أرادوا بالروز الصك الذي يكتب يوم القبض هكذا يظهر لي .

(الرهداري)

وفي (ص ٦٠) : « ثم يعمد إلى من يبيع يسيراً مثل نقلي ورهداري ومن رأس ماله دينار وديناران » وفي (ص ١٨٧) : « اجتزت برهداري بمصر فرأيت عنده

---

(١) منه نسخة قديمة بها خروم في دار الكتب المصرية واصله الزاهر لابي بكر محمد الانباري فاختصره الزجاجي وحذف شواهده وشرح مافيه وبين اوهامه وزاد فيه فوائد ولم يغير اسمه .

حجراً أعرفه يكون وزنه خمسة دراهم مليح المنظر وقد جعله بين يديه في قماشه وكنت اعرف ان خاصيته في طرد الذباب » . وفي (ص ١٩٠) : « فلما كان بعد سنة اجتزت برهداري على الطريق وإذا بين يديه قناة تشبه قناتي وتأملتها فاذا هي[1] ورطلتها فاذا ثقلها بحاله » . فنرى انه جعله في العبارة الأولى من صغار الباعة وفي الثانية من بائعي الاحجار ذوات الخواص وفي الثالثة من بائعي العصي في الطرق . وكل ذلك صحيح لان الرهداري يعاني التجارة في كل شيء وهو مركب من كلمتين فارسيتين من راه بمعنى الطريق ومن دار بمعنى صاحب والمراد من يطوف بسلعه على الناس في الطرق أي من يسمى عند العامة بمصر (بالسّبرّيح) . والفرس تقول فيه راهدار وتطلقه على من يحافظ على الطريق ويخفره في معنى الديدبان وعلى الذي يقبض المكوس على السلع الداخلة من مملكة إلى اخرى لانه يكون في ملتقى الطرق بين المملكتين . والياء التي بآخره هي ياء التنكير عندهم فلما استعمله المولدون ابقوها بآخره كما فعلوا بالروز كاري وهو العامل في البناء بالمياومة أي من يقال له عند العامة (الفاعل) . وذكر ابن خلكان في ترجمة أحمد الغزالي انه نسبة إلى الغزال عند من يشدد الزاي قال وهذه النسبة على عادة أهل خوارزم وجرجان فانهم ينسبون إلى القصار القصاري وإلى العطار العطاري ومثله في الفوائد البهية في تراجم الحنفية للكنوي في ترجمة البقالي الا انه قال بان هذه الياء زيادة العجم لانسبة . قلنا وماهي الا هذه الياء التي للتنكير كانوا يلحقونهابنسب اصحاب الصناعات ثم لما لقب بها اشخاص معينون بقيت في القابهم .

(الباب)

وفي (ص ٦٥) : « وجدنا كل جريب خس يزرع فيه ستة ابواب يقلع من كلّ باب من الأصول كذا وكذا » الجريب معروف وهو كالفدان بمصر الا انه أقل مساحة منه . واما الباب فالظاهر انهم يريدون به احد الاجزاء التي يقسم اليها الجريب وقت الزرع أي مايسمى عند الزراع بمصر بالبيت وبالحوض .

أحمد تيمور

---

(١) لعله فإذا هي هي .

غابر الاندلس وحاضرها

(١٨) ذكرى مؤلمة

مضت اعوام تلتها أعوام ، والنفس تتحدث بالارتحال إلى الاندلس المحبوبة ، تستنفض معالمها ومجاهلها ، وتستبطن معاهدها ومصانعها ، فتتدبر ، وتدكر ، وتستفيد ، وتفيد . ولما اتاحت لها الاقدار ، بلوغ تلك الامصار ، عرض لها ماكدّر صفو تلك الذكرى ، ذكرى التطواف في الاندلس بعد عزها للاعتبار ، بالدمى والاحجار ، واستنطاق الآثار ، واستقراء الاخبار ، لمعرفة عمل العرب في تلك الديار . .

اتفق نزولي غرناطة في اليوم الثاني من كانون الثاني ، اليوم الذي خرج فيه أبو عبد الله آخر ملوك بني الاحمر من عاصمة الاندلس ، وانتقلت احكامها إلى ايدي الغالبين من الاسبانيين ، والجرس يدوي في كنيسة الحمراء دوياً متواصلاً لامتساوقاً مدة اربع وعشرين ساعة ، احتفالاً بهذا اليوم الذي يعده أهل اسبانيا عامة وسكان غرناطة من بينهم خاصة من اسعد ايامهم الغر . احتفلوا به ضروب احتفال ، ومن جملة مظاهر سرورهم مأدبة ادبها يومئذ شيخ مدينة غرناطة في النزل الذي حللته في جوار الحمراء واسمه نزل « واشنطون » على اسم واشنطون محرر اميركا الشمالية وقد حضر المأدبة عظماء المدينة وشربوا وطربوا على ذكر استيلاء اجدادهم على آخر أرض احتلتها العرب من شبه جزيرتهم .

تذكرت ذاك اليوم المشؤوم ، وقد رفع الصليب الفضي على اعلى برج في الحمراء اشارة إلى ظفر الاسبان الاخير وخروج العرب من هذه الديار ، وقد اخذ ابو عبد الله بن الاحمر يتحفز في حاشيته ليخرج من الحمراء قبل ان يبغته العدو فيها ، ويتلفت وهو يجتاز جبل الثلج إلى غرناطة البديعة فيتنهد ويبكي ، وامه ترافقه وتقول له : لاتبك كالنساء ملكاً لم تستطع ان تحافظ عليه كالرجال .

كل سنة يبالغ القوم هنا بعيد غرناطة السنوي وقد احتفلوا به حتى اليوم اربعمائة وثلاثين سنة يتذكرون كل مرة نصرتهم على اعدائهم ويوماً تمت لهم فيه وحدتهم القومية

والدينية ، وقد مثلوا افظع مأساة ارتكبتها انفس متعصبة جاهلة ، وسلكوا للخلاص من مخالفيهم طرقاً بشعة ، لم يسلكها هؤلاء معهم يوم استصفوا ارضهم وحلوا دياراتهم ، وهم في رفعة ومنعة ، وغبطة وسعة . يحشدون يوم الحفل رجالهم ونساءهم وذراريهم يحفزون ارواحهم ليوقظوها ، ويهيجون كوامن الصدور ليعتبروا بما وقع لهم في سالف العصور وليعلموهم ان غلبة سنة ١٤٩٢ وان كانت من باب تسلط الجهل على العلم الا انها دلت على ان الثأر لاينسى ولو بعد ثمانية قرون .

وما كان اجدر بالعرب ان يعدوا آخر يوم خرجوا فيه من الاندلس من ايام البؤس ، المشتملة بالحزن ، المملوءة بالاستعبار ، يتناشدون فيه التعازي والمراثي . ويتطارحون حديث محنة مضت ، وتذكارها المؤلم لم يبرح يتجدد ، وشرر شرها لم يزل يتولد ويتوالد .

قيل ان اناساً من جالية الاندلس في بر العدوة ما برحوا إلى اليوم وقد انقضت أربعة قرون على مغادرتهم بلداً نبت لهم فيه العز ، واثمر المجد والسعد ، يخلف الوالد منهم لبنيه في جملة مخلفاته ، مفاتيح داره في الاندلس على امل ان يعود اولاده اليها ذات يوم ويفتحوها وينزلوها . تذكار ان عده بعضهم في باب الهزل ، وقيده في سجل المستحيلات يحوي ولاجرم في مطاويه اجمل العظات ، واعظم التذكارات .

وحقيق بكل بلد للعرب فقد استقلاله ان يقيم كل سنة المآتم على ماحل به خصوصاً في البلاد التي يعبث فيها المتغلبون بمشخصات المغلوبين فان بعض العناصر الاوربية كالاسبان لم يكتفوا بطرد العرب من بلادهم بل يحاولون اليوم في الريف من بلاد مراكش ان يجلوهم عنها بعد ان تأصلت كلمتهم فيها منذ ثلاثة عشر قرناً اقاموا خلالها مدنيات وانشأوا امجاداً لهم ودولات .

ان العرب الذين انشأوا من العدم مدنية الاندلس وقاموا في عصور الظلمات باعمال لايكاد يصدق الناظر اليها انها بنت قرائحهم ، وثمرة عقولهم ، لو لم تتناصر على ذلك اصدق الروايات ، لايعجزهم اليوم ، والعصر عصر النور ، ان يقوموا بمثل ما عمله اجدادهم ، لو نفس خناقهم ، وملكوا زمناً قياد انفسهم . بعض أهل الغرب اليوم حرب على الشرق وسوف تكون لهذا الغلبة للاحتفاظ بدياره وآثاره ، وامامه اسبانيا

والبورتقال اللتان ثأرتا لنفسهما من مستعبديهما بعد قرون ولم تكونا في رقي العرب اليوم عدداً وعدداً ، ومضاءً وغناءً .

أضعف أمة اليوم في الغرب لا يبلغ عدد أهلها عدد أهل اقليم واحد من أقاليم العرب أو قطر من أقطارهم تتناغى الليل والنهار بآثارها وتتحدث بمفاخر أجدادها وتقدس أعمال نوابغها ورجالها ولا تنسى يداً للمحسن اليها ، ولا اساءة مجرم جانٍ عليها . العرب توغلوا يوم اشتد سلطانهم في جنوبي أوربا ونشأت لهم حكومات في شبه جزيرة ابيريا وجزيرة صقلية وسردانية فارتكبوا بذلك جناية في عرف أهل تلك الديار ، افليس من العدل أن تغتفر لهم هذه الهفوة أو الغزوة ، في جانب ما حملوه إلى من غلبوهم من ضروب المعارف والصناعات ، ومستحسن الآداب والاخلاق . العرب حملوا إلى الاندلس حضارة رائقة ، ونظاماً محكماً ، أحلوهما محل الفوضى والتوحش ، والسخافات والخرافات .

تود كل أمة اليوم مهما بلغ من تراجع الحضارة بينها أن تحكم نفسها بنفسها وتمثل مشخصاتها ومقدساتها ، فهل ينال العرب هذه الامنية وهم ليسوا دون بعض الامم الاوربية التي أخذت تتمتع الواحدة تلو الاخرى باستقلالها منذ قرن من الزمن فليس كل أمم أوربا بحضارتهم الانكليز والالمان والفرنسيس ولا كل الشعوب العربية على مستوى واحد في الحضارة والنور .

(١٩) جلاء المسلمين وتنصيرهم

لما استولى العرب المسلمون على الاندلس لم يكرهوا أحداً من سكان البلاد الاصليين على الدخول في دينهم ، بل أظهروا التسامح المقبول الذي يأمرهم به الدين الحنيف ، واطلقوا للناس حريتهم في ذلك ، فكان بعض الاسبانيين يدينون بالاسلام برضاهم .

فعهد العرب إذاً في الاندلس كان عهد تسامح وحرية ، لم تعهدهُ من قبل ولا من بعد ولم يمنع عن بث الدين المسيحي إلا دعاته المفرطون ، ممن كانوا يقفون على أبواب المساجد والجوامع ، ويدعون المسلمين إلى دينهم ، ولا جوزوا أخذ مال أحد من أهل ذمتهم بل اكتفوا بجزية بسيطة ، وساووهم في جميع الأمور بأنفسهم .

مثال من لطف الحكم تعلمه الفاتحون من كتابهم فلم يحيدوا عنه قيد غلوة ، وهم في

عز سلطانهم ، والقول الفصل في الأرض كلها لهم ولقومهم مدة قرون طويلة .

هكذا فعل العرب في ابان قوتهم ، فانظر ماذا صنع الاسبان يوم قوي سلطانهم وكيف عاملوا العرب نقلاً عن شاهد العيان قال :

لما استولى صاحب قشتالة على مدينة بلش عام اثنين وتسعين وثمانمائة ودخلت في ذمته جميع القرى التي تلي بلش وقرى جبل منتميس وحصن قمارش خرج أهل بلش من بلدهم مؤمّنين ، وحملوا ما قدروا على حمله من أموالهم فمنهم من جوّزه العدو إلى أرض العـــدوة ومنهم من أقام في بعض تلك القرى ومنهم من صار إلى أرض المسلمين التي بقيت بالاندلس .

ولما استولى الغالبون على مدينة مالقة وبلش وجميع الجهات الغربية لم يبق للمسلمين في تلك الناحية ملجأ . وفي عام ثلاثة وتسعين وثمانمائة خرج العدو نحو حصون الشرقية وكانت في صلحه فاستولى على تلك الحصون كلها وفي سنة ٨٩٤ خرج نحو حصن موجر فاستولى عليه وعلى الحصون القريبة منه ومن مدينة بسطة .

وكان صاحب قشتالة كثيراً ما يستعين بالمرتدين والمدجنين على قتال المسلمين يدلونه على عوراتهم ، ولطالما أمر بهدم المدن والقرى التي يستولي عليها يبني بانقاضها مسوّرات في بضعة أيام كما فعل في غرناطة . ومن جملة الشروط التي شرط أهل غرناطة على ملك قشتالة أن يؤمنهم في أنفسهم ونسائهم وصبيانهم ومواشيهم ورباعهم وجناتهم ومحارثهم وجميع ما بأيديهم ولا يغرمون إلا الزكاة والعشر لمن أراد الاقامة ببلدة غرناطة . ومن أراد الخروج منها يبيع أصله بما يرضاه من الثمن لمن يريده من النصارى والمسلمين من غير غبن ، ومن أراد الجواز لبلاد العدوة بالغرب يبيع أصله ، ويحمل أمتعته ، ويحمله في مراكبــه إلى أي أرض أراد من بلاد المسلمين من غير كراء ولا شيء يلزمه لمدة ثـلاث سنين ، ومن أراد الاقامة من المسلمين بغرناطة فله الامان على نحو ما ذكر وكتب لهم بذلك كتاباً ، وأخذوا عليه عهوداً ومواثيق في دينه مغلظة . وبعد ذلك أخلى المسلمون مدينة الحمراء كما أخلوا غرناطة ودخلها الاسبانيون . ولما سمع أهل البشرة ان أهل غرناطــة دخلت تحت ذمة النصارى أرسلوا بيعتهم إلى ملك الروم ودخلوا في بيعته فلم يبق للمسلمين موضع بالأندلس .

ولقد سرح صاحب قشتالة للمسلمين بالجواز إلى الساحل فصار كل من أراد الجواز يبيع ماله ورباعه ودوره فكان الواحدمنهم يبيع الدار الكبيرة الواسعة المعتبرة بالثمن القليل وكذلك يبيع جنانه وأرض حرثه وكرمه وفدانه بأقل من ثمن الغلة التي كانت فيه فمنهم من اشتراه منه المسلمون الذين عزموا على الدجن ومنهم من اشتراه منه النصارى وكذلك جميع الحوائج والامتعة ومن المسلمين من طمعوا في عناية ملك النصارى فاشتروا أموالاً رخيصة وأمتعة وعزموا على المقام في الاندلس .

ثم ان الملك أمر الأمير محمد بن علي بالانصراف من غرناطة إلى قرية اندرش من قرى البشرّة فارتحل بعياله وحشمه وأمواله واتباعه ثم ظهر له أن يصرفه فبعث المراكب تأتي لمرسى عذرة واجتمع معه خلق كثير ممن أراد الجواز فركب الأمير محمد ومن معه في تلك المراكب حتى نزلوا مدينة مليلة ففاس من عدوة المغرب .

وأخذ ملك الاسبان بعد حين ينقض الشروط التي اشترطها عليه المسلمون ، وشرع يفرض عليهم الفروض ، وثقلت عليهم المغارم ، وقطع لهم الأذان ، وأمرهم بالخروج من مدينة غرناطة إلى الارباض والقرى وبعد ذلك دعاهم إلى التنصر وأكرههم عليه وذلك سنة أربع وتسعمائة فدخلوا في دينه كرهاً وصارت الاندلس كلها نصرانية . وامتنع بعض أهل الاندلس من التنصر كأهل قرية ونجر والبشرّة واندرش وبلفيق فاحاطبهم ملك قشتالة وقتل رجالهم وسبى نساءهم وأخذ صبيانهم وسلب أموالهم ونصّرهم واستعبدهم . وامتنع أناس في غربي الاندلس من التنصر وانحازوا إلى جبل وعر منيع فلما امتنعوا عليه وقاتلهم فلم ينل منهم منالاً أعطاهم الامان على أن يجوزهم لعدوة المغرب مؤَمنين على أن لا يسرح لهم شيئاً من أموالهم غير الثياب التي كانت عليهم وجوزهم لعدوة المغرب كما شرطوا ولم تقم للاسلام والمسلمين بعد ذلك قائمة .

قال السلاوي : التزم أهل غرناطة طاعة صاحب قشتالة لما استولى عليها سنة سبع وتسعين وثمانمائة والبقاء تحت حكمة ولما نقض الشروط وهي سبعة وستون شرطاً عروة عروة ومنها اقامة شريعة المسلمين على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم إلا بشريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك إلى أن آل الحال لحملهم على التنصر فتنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة وكان أهل الاندلس كثيراً ما يهاجرون إلى بلاد

الاسلام غير أن عامتهم كانوا قد تخلقوا باخلاق العجم (غير العرب من الاسبان) واثر فيهم ذلك أثراً ظاهراً لطول صحبتهم لهم ونشأة أعقابهم بين أظهرهم إلى أن كانت سنة ست عشرة والف فهاجر جميع من لم يتنصر منهم إلى بلاد المغرب وغيرها وفي خلال ذلك منع العرب من التكلم بالعربية [١]

قال المقّري : كان النصارى بالاندلس قد شددوا على المسلمين بها في التنصر حتى انهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكين الصغير فضلاً عن غيرها من الحديد وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقيض الله لهم ناصراً إلى ان كان اخراج النصارى اياهم أعوام سبعة عشر وألف فخرجت ألوف بفاس وألوف اخر بتلمسان ووهران وخرج جمهورهم بتونس وخرج طوائف بتطاوين وسلا والجزائر وعمروا القرى واغتبط بهم الناس وتعلموا حرفهم وقلدوا ترفههم [٢] ووصل جماعة منهم إلى القسطنطينية وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام .

. . .

(١) لما انقرضت دولة العرب وبقي بعضهم فيها حافظوا على دينهم مع شدة الاضطهاد ولكنهم نسوا أو ألزموا باهمال اللغة العربية وصارت اللغة القشتالية اي الاسبانية ملكة متوارثة فيهم فكتبوا علومهم بها لكن بحروف عربية وسموها (الخميادو — Aljamiado) ووجه التسمية ان العرب يسمون كل ما ليس بعربي أعجمياً وجرى على منوالهم الاندلسيون فكانوا يسمون اللغة القشتالية أي الاسبانية باسم «الاعجمية» ثم انتقلت هـذه اللفظة إلى اللغة الاسبانية بغير حرف العين لعدم وجود ما يقابله في اللغات الافرنجية فصارت الكلمة مقابل هذا الصوت (الاجاميا) ولما كان أهل اسبانيا يقلبون أغلب الجيات خاآت قالوا (الاخاميا) أو (الخميا) ورسموها بحروفهم هكذا بعد أن سكنوا حركة اللام (Aljamia) وعلامة النسبة عندهم do توضع في آخر الكلمة فلذلك قالوا (Aljamiado) أي الاعجمي . (السفر إلى المؤتمر)

(٢) قال ابن أبي دينار ان المهاجرين من الاندلس إلى تونس سنة ١٠١٧ — ١٠١٨هـ كانوا خلقاً كثيراً فاوسع لهم عثمان داي في البلاد وفرق ضعفاءهم على الناس واذن لهم ان يعمروا حيث شاؤوا فاشتروا الهناشير وبنوا فيها واتسعوا في البلاد فعمرت بهم واستوطنوا=

هذا مارواه مؤرخو العرب واليك ماقاله مؤرخو الافرنج في هذه الكارثـــة : جاء في التاريخ العام للافيس ورامبو : صحت النيـــة سنة ١٦٠٩ على نفي العرب Les morisques وكانوا يؤلفون عنصراً خاصاً عصى على التمثل ولم ينزل عـــن مشخصاته ومميزاته على كثرة مابذل فيليب الثاني من الجهد فوقع الاتفاق على التذرع بكل ماعكن لاهلاكهم فعمدت الحكومة إلى الخروج عن القانون بدعوى قيامها بما فيه سلامتها ولانجاز وحدة اسبانيا وانقاذ البلاد من أولئك المحالفين سراً للاتراك والانكليز والفرنسيس على حين اشتدت شوكة قرصان البحر من البربر وهنري الرابع يضع خططه السرية فحاذرت اسبانيا العواقب وقام رئيس اساقفة بلنسية يدعوا إلى طرد العــــرب مدعياً ان منهم تسعين الفاً يستطيعون حمل السلاح وإذا أغار على اسبانيا عدوها تسوء حالها ويحرج موقفها . وإذ كان القشتالي كسلاناً فقيراً كان يكره من العرب منافستهم الشديدة له التي اكسبتهم غنّى بفضل اقتصادهم نادى رئيس الاساقفة ان مما يخشى منه ان يحتكر هؤلاء العرب جميع ثروتنا ويؤدوا بالمسيحيين إلى العدم والشقاء . وقال غيره انهم يدخرون على الدوام وعلمهم عبارة عن سرقتنا فهم الدودة التي تقرض اسبانيا . وعلى هذا كان من التعصب الديني ان قضى على العرب . ولما تعذر تنصيرهم رأوا أن الطريق الوحيد الى الخلاص من خطرهم المادي والمعنوي يكون بطردهم فقوي نفوذ رجال الكهنوت على ممثلي طبقات الاشراف في البلاد وكانت عقول هؤلاء أكثر استنارة يحرصون على الاحتفاظ بالعرب في بلادهم لانهم عاملون ينفعونهم بعملهم ويدرون عليهم ريعاً كبيراً فقاموا ينكرون الشدة التي ارتأى ان يعمد اليها المجلس والحبر نديم الملك فلم يلبث بقايا العرب في بلنسية والاندلس ومرسية وقشتالة وارغون وكتلون ان غربوا (ايلول

= في عدة اماكن وبنوا أكثر من عشرين بلداً فصار لهم مدن عظيمة وغرسوا الاشجار ومهدوا الطرقات بالكراريط للمسافرين وصاروا يعدون من أهل البلاد . وذكر السيد حسن حسني عبد الوهاب من علماء تونس في رسالة بالافرنسية ذكر فيها أصول التونسيين انه دخل تونس في القرنين ونصف القرن الذي انتهى بها جلاء العرب عن الاندلس لا أقل من مئة الف اندلسي وان الطبقة المتمدنة الغنية من الاندلسيين نزلت مدينة تونس واختلطت باهلها وقلدهم ملوك بني حفص فيها خطط القضاء والادارة والتعليم .

١٦٠٩ تموز ١٦١٠) وحملوا إلى افريقية حيث هلك عدد كبير منهم وثار أربعون الفاً منهم فاعتصموا في جبال بلنسية فذبحوا أو استعبدوا ففقدت اسبانيا بهم على اقرب تقدير من خمسمائة الى ستمائة الف من أحسن العاملين في الزراعة والصناعات وعجلت بذلك خرابها وبعملها هذا ابتاعت وحدتها الدينية بالثمن الغالي وفرح الرأي العام الاسباني اذ ذاك بما تم في هذا الشأن وعدوه من أعظم الأعمال التي قامت في عهد ملكهم ومنهم من رأوه نعمة من السماء ! وقال مؤرخ اسباني : يالسعادة ملك توفق إلى أن يعمل هذا العمل من طرد العرب . ولكن الامم خارج اسبانيا عدوا عمل الاسبانيين من تغريب العرب جنوناً بل وصفه ريشليو بانه افظع عمل بربري ذكره تاريخ القرون .

وفي التاريخ العام أيضاً أن خضوع العرب في اسبانيا قد اقلق ملوك الكاثوليك [1] وفتح امامهم مسألة تطالوا إلى حلها بما عهد في عنصرهم من المضاء الوحشي وبما اشتهرت به قرون التدين من التعصب وعدم التسامح فرأوا ان بعض مئات الالوف من الاسرائيليين والمسيحيين يكثرون سواد المخالفين وهم كثير نسلهم لايعلم ماذا يكون منهم . وهم على ماهم فيه من النمو يغتنون ويعملون فاشتد القلق من قوم يخالفون الاسبانيين بحضارتهم بل يعجبون بها ولهم ميول وعقائد وعواطف تخالف ماعليه الجمهور فبدأوا بالاسرائيليين حتى ان ميل لوكاس اعظم سادات قشتالة ذبحه سكان جيان أمام المذبح في الكنيسة سنة ١٤٧٣ لاتهامه بالعطف على الاسرائيليين .

وكان من مذابح سنة ١٣٩٠ ان اضطر الوف من اليهود في معظم مدن قشتالة ان يتنصروا ومنهم من دام على نصرانيته ومنهم من رجع الى دينه الأصلي أو كان ظاهره مسيحياً،وقلبه وعاداته قلب اسرائيلي وعاده . وكان منهم طبقة غنية محترمة . وفي سنة ١٤٨١ وقع تخييرهم بين التنصر والجلاء فآثروا الثاني إلا أن ديوان التفتيش لم تأخـــذه بهم رحمة كما لم يشفق على المسلمين سنة ١٤٩٢ فشقوا عصا الطاعة بما رأوه من تعصب

(١) يريد ملوك اسبانيا فان ملك اسبانيا لايزال إلى اليـــوم يدعى في الرسميات صاحب العظمة الكاثوليــكي : Sa Majesté' Catholice

الكردينال كسيمنس [١] الذي عمد إلى تنصيرهم بابشع الطرق من الحبس والشدة وأخذ الأولاد ولما فرغ صبرهم وعمدوا إلى السلاح نقض ما أعطوه من الشروط يوم تسليمهم غرناطة ولئن فضلوا أن يتنصروا على أن يهجروا بلادهم فانهم لم يسلموا أيضاً واشتد ديوان التفتيش في مراقبتهم وكان الاسبانيون يرون في عمل هذا الديوان الديني سلامة عنصرهم وسلامة دينهم ولذلك كانوا شاكرين لعمله مهما قسا وغرم .

وقال ريناخ : لم تكتف اسبانيا بما قامت به من المظالم باسم الدين واحراق البشر وقتلهم وتعذيبهم بل رأت أن توهم الناس أنه لا سبيل إلى قيام وحدتها إلا بنفي اليهود سنة ١٤٩٢ ونفي العرب (١٦٠٩) فسار مئات الألوف منهم يهجرون بلادهم وهلك منهم في الطرق عشرات الألوف فحرمت اسبانيا من أحسن العاملين فيها وفقدت تجارها الماهرين وأطباءها الحاذقين وقد قتل في اسبانيا وحدها بفعل ديوان التفتيش الديني نحو مئة ألف انسان على الأقل ونفي منها مليون ونصف وبذلك خربت مدنية تلك البلاد الجميلة .

وقال سيديليو : كان طرد العرب من اسبانيا من موجبات تأخرها كما وقع لمدينة نانت يوم طرد منها من كان مخالفاً للكثلكة فأضرّ ذلك بالصناعة الفرنساوية وقد تمكن الكردينال كسيمنس من تعويز جميع آثار المسلمين وأمر باحراق ثمانين ألف مخطوط عربي في ساحات غرناطة .

(٢٠) سقوط الاندلس

كان العرب في الاندلس في جهاد دائم مع أعدائهم منذ وطىء طارق بن زياد وموسى ابن نصير أرضها ، ورفعوا علم الامويين على ربوعها، ودفعوا باعدائهم إلى أقصى الشمال . يسكن الجلالقة وغيرهم حيناً إذا وجدوا العرب مستمسكين بعروة الوحدة، ومتى شاهدوا اختلاف أمور العرب أو آنسوا من بعضهم ميلاً إليهم أو نزوعاً إلى الاحتماء بهم لينالوا

(١) هو مرشد ايزابيلا الكاثوليكية ملكة قشتالة حكم اسبانيا بعد موت فرديناند الكاثوليكي مات سنة ١٥١٧ وقد كان من أعظم من قضوا على العرب ومدنيتهم على ما مرّ بك في الفصول السابقة .

من خصومهم يحملون حملات منكرة ، ويقاتلون أعداءهم بكل ما فيهم من قوة ولذلك قلت غارات الاسبانيين والبرتقاليين على البلاد التي نزلها العرب على عهد دولة بني أميـة أوائل المئـة الخامسة وان كان الثوار لم ينقطعوا تماماً في الداخل عن مجاذبة الامويين حبل السلطة .

ثم فسدت عصبية هذه الدولة من العرب واستولى ملوك الطوائف على الاندلس واقتسموا خطتها وتنافسوا بينهم وتوزعوا ممالك الدولة وانتزا كل واحد منهم على ما كان في ولايته وشمخ بانفه وبلغهم شأن العجم مع الدولة العباسية فتلقبوا بألقاب الملك ولبسوا شارته واستبد كل واحد منهم بجانب من الاندلس ودعى نفسه ملكاً فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمعتضد والمظفر وأمثالها حتى نعى عليهم ابن شرف عملهم بقوله المأثور

مما يزهدني في أرض أندلس   أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها   كالهر يحكي انتفاخاً صورة الاسد

أو كما قال ابن حزم : فضيحة لم يقع في الدهر مثلها أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام في مثلها يسمى كل واحد منهم بامير المؤمنين ويخطب لهم في زمن واحد أحدهم في اشبيليه والثاني بالجزيرة الخضراء والثالث بمالقة والرابع بسبتة . وأصبح العرب والبربر في خصام مستديم والجميع في خلاف مع أهل المغرب الاقصى من الجنوب وفي حروب مع بقايا الامم الاسبانية والبرتقالية من الشمال والغرب .

سقطت الاندلس لتشتت أهواء أمرائها وأصبح بعضهم «ولاهمّ له سوى كأس يشربها وقينة تسمعه ، ولهو يقطع به أيامه ، واسترسلوا إلى اللذات ، وركنوا إلى الراحات ، واغفلوا الاجناد ، واحتجبوا عن الناس ، ولم يعودوا ينظرون في الملك ، ومنهم من قتل كبار قواده ، ووسد الأمور إلى الضعاف ، فكثرت المظالم والمغارم ، وكثر الثوار مرات بشرق الاندلس وغربها من القضاة وغيرهم ، وهكذا تبدد شمل الجماعة «فضبط اشراف العمالات أزمة أمورهم ، وركبوا ظهور غرورهم ، فاتوا من ذلك بكل شنيعة » .

قال ابن حزم : كانت طرطوش وسرقسطة وافراغه ولاردة وقلعة أيوب في يد بني هود وبلنسية في يد عبد الملك بن عبد العزيز والثغر اي ما فوق طليطلة من جهة الشمال في يد بني رزين وطليطلة في يد بني ذي النون وقرطبة في أيدي أبناء جهور

واشبيلية في يد بني عباد ومالقة والجزيرة الخضراء في يـــد بني برزال من البربر والمرية في يد زهير العامري ثم ابن صمادح ودانية واعمالها والجزائر الشرقية (البالبار) في يد مجاهد العامري وبطليوس ويابرة وشنترين ولشبونة في يد بني الافطس وأصبح كل امرىء وما اختار من الالقاب والاسماء حتى ان المستعين لما جلس على عرش الخلافة قـــال للناس اجمعين : ارتعوا كيف شئتم ، وارتسموا بما احببتم من الخطط ، فتسمى بالوزارة في ايامه منفردة ومثناة (أي الوزير وذي الوزارتين) اراذل الدائرة ، واخابث النظار ، فضلاً عن زعانف الكتاب والخدمة .

قسمت الاندلس بعد سقوط الامويين ، إلى تسع عشرة مملكة منها قرطبة واشبيلية وجيان وقرمونة والغرب والجزيرة الخضراء ومرسية وبلنسية ودانية وطرطوشة ولاردة وسرقسطة وطليطلة وباجة ولشبونة وغيرها . ولقد كان يخشى بعد هذا التفرق وتراجع امر الدولة الاموية ان تسقط الاندلس دفعة واحدة ولكن قدر الله ان يكون ملوك الجلالقة وقشتالة وغيرهم مشتتة كلمتهم متفرقة اهواؤهم وقيض للبلاد دولة اخرى جديدة قوية جاءتها من الجنوب أي من المغرب الأقصى وهي دولة المرابطين فافرج بها عـــن العرب بعض الفرج فجاء يوسف بن تاشفين وقاتل الادفنش سنة ٤٨٠ وانتصر عليـــه وكانت البلاد الى البوار بسبب استيلاء النصارى عليها واخذهم الاتاوة من ملوكها قاطبة .

ثم عادت أحوال الاندلس فاختلت اختلالاً مفرطاً آخر دولة أمير المسلمين علي بن يوسف أوجب ذلك « تخاذل المرابطين وتواكلهم ، وميلهم إلى الدعة ، وايثارهم الراحة وطاعتهم النساء ، فهانوا على أهل الجزيرة ، وقلوا في اعينهم ، واجترأ عليهم العدو ، فاستولى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم . » . حتى جاء الموحدون كما كان المرابطون من قبل بدعوة عقلاء الاندلس وامرائها وقد كانوا يدعونهم إلى نصرتهم بضروب الفصاحة من الشعر والنثر ويستنفرون الناس من العدوة .

لما اشتد الحصار على أهل اشبيلية سنة ٦٤٥ صنع ابراهيم بن سهل الاسرائيلي قصيدة يستنفر بها الغزاة من العدوة ويستنصر بامراء العرب وذلك إذ كان العدو عليها قال فيها :

يامعشر العرب الذين توارثوا ... شيم الحمية كابراً عن كابر
ان الاله قد اشترى أرواحكم ... بيعوا ويهنئكم وفاء المشتري

أنتم أحق بنصر دين نبيكم | وبكم تمهد في قديم الاعصر

إلى أن قال :

والخيل تضجر في المرابط عرة | الا تجوس حريم رهط الاصفر
كم نكروا من معلم ، كم دمروا | من معشر ، كم غيروا من مشعر
كم أبطلوا سنن النبي ، وعطلوا | من حلية التوحيد صهوة منبر

إلى أن قال :

عندالخطوب النكر يبدو فضلكم | والنار تخبر عن ذكاء العنبر
لو صور الاسلام شخصاً جاءكم | عمداً بنفس الوامق المتحير
ولو انه نادى النصير لخصكم | ودعاكم يا أسرتي يا معشري

نعم كانت التفرقة بين أمراء العرب في الاندلس مما علم أعداءهم كيف يتحدون ليدفعوهم عن أرضهم كما وقع للعرب في صقلية سنة ٤٣١ فانهم بعد أن دفعوا عنها جيوش البيزنطيين والنورمانديين والروسيين والفاكريكيين قسموا صقلية إلى امارات صغرى فانشأوا جمهورية في بلرم وأخرى في سرقوزة وكان ذلك من أكبر الدواعي في زوال سلطانهم . لا جرم أن ضعف الوازعين الديني والمدني من ميل القوم إلى الراحة والدعة وضعف الأخلاق الحربية فيهم وانتشار الفوضى في أحكامهم كان منه أن تأذن الله بذهاب ريحهم لا كما يدعي بعض العامة من أن رواج سوق الشعر كان السبب في زوال الاندلس وتبديد شمل أهلها فقد كان الشعر عندهم من جملة المسليات لأن للعرب عامة غراماً به والأدب وسيلة إلى العلوم كافة والعرب أمة أولعت منذ عرف تاريخها بالفصاحة والبلاغة .

ومن تدبر سير الحروب بين العرب والاسبان والبرتقاليين في المدة التي ارتفعت فيها أعلام المسلمين على الاندلس يدرك أن القوتين قوة الغالب والمغلوب كانت متعادلة في أكثر الأيام ولكن تكتب الغلبة للفريق الذي كان جنده منظماً أحسن من جند خصمه وكان بعض خلفاء الأندلس يعتمدون على جنودهم من الرقيق كالصقالبة وغيرهم ويعفون رعاياهم من التجند على حين كان زعماء الاسبان يصرفون أيام شبابهم في تعلم الضرب بالسيف

والرمح لقتال اعدائهم [١] والعرب لايجوزون ان يستبدلوا العادات الحربية باعمال الزراعة ومافي المدينة الراقية من التمتع والهناء فكان الناس في الممالك النصرانية يضطرون إلى الخدمة في الجندية ويرافق الاشراف ملوكهم إلى الحرب مع اتباعهم .

أما العرب فلا يخرج احدهم الا إلى الجهاد وإذا خرج فيكون خروجه على الاغلب متكارهاً لمدة معينة فكانت اوضاع الاسبان حربية محضة تكون لهم بها الغلبة في القتال اما في البحر فكان العرب اشد بأسا واقوى اساطيل ولهم في كل فرضة من فرض الاندلس سفن معدة وقد اقاموا لهم دور صناعة في المرية وطرطوشة وطرخونة وكانت معامل اشبيلية وقرطاجنة تخرج كل سنة سفناً جديدة تمخر في عرض البحار .

استولى الملوك من بني الاحمر قرنين ونصف قرن كما تقدم لنا الكلام في ذلك وهم الذين استولوا على بقايا مجد العرب بعد ان انتصر سلطانهم سنة ٦٦٣ هـ على الفرنج واسترجع منهم اثنين وثلاثين بلداً من جملتها اشبيلية ومرسية ثم عاد العدو واخذ بمخنقهم ولكن لم ينل منهم لاجتماع كلمتهم في الداخل على الجملة . ولما دب الهرم في جسم دولتهم وقوي الاسبان باتحاد ايزابيلا ملكة قشتالة وفرديناند ملك الاراغون أي باتحاد المملكتين الرئيستين في الشمال تأذن الله بفناء الاندلس فلم يبق امامهم الا التسليم والاستسلام وفي ذلك كان هلاكهم وبوارهم .

(٢١) جبل طارق وطنجة

كان جبل طارق الذي نسب إلى طارق بن زياد فاتح الاندلس وهو المكان الذي

(١) وصف لسان الدين امة قشتالة بقوله : وحال هذه الامة غريب في الحماية المزوجة بالوفاء والرقة ، والاستهانة بالنفوس في سبيل الحمية . عادة العرب الاول . واخبارهم في القتال غريبة من الاسترجال ، والزحف على الاقدام ، اميرهم ومأمورهم ، والجثو على الارض ، أو الدفن في التراب ، والاستظهار في حال المحاربة ببعض الالحان المهيجة ، ورماتهم قسيهم عربية جافية ، وكلهم في دروع ، ولا لجام عندهم ، والتقهقر مقدار الشبر ذنب عظيم وعار شنيع ، ورماتهم يسبقون الخيل في الطراد ، وحالهم في باب التحلي بالجواهر وكثرة آلات الفضة غريب اهـ .

بلغه في جيشه اواخر المئة الاولى بايدي العرب مدة استيلائهم على الاندلس فلما دالت دولتهم عاد إلى الاسبان ولبث في حكمهم إلى القرن الثامن عشر واستولى الانكليز عليه في سنة ١٧٠٤ واحتفظوا به رغم محاولة الاسبان في سنة ١٧٠٤ ـ ١٧٧٩ بمعاضدة الاسطول الفرنسوي للاستيلاء عليه فلم يستطع الاسطولان الفرنساوي والاسباني تخليص هذا الحصن من ايدي الانكليز .

يعلو جبل طارق عن سطح البحر ٤٢٥ متراً وهو متصل مع القارة الاوروبية بسهل من الرمل فيه بطائح ويشرف على المدينة . وقد جعل الانكليز فيه قلعة شحنوها بالمدافع فجاءت من احصن ما في العالم من الحصون. فهو في الحقيقة قطعة من ارض اسبانيا ولكنه انكليزي الحكم والنظام. يشرف على البحرين المحيط والمتوسط ويأخذ بمخنق السفن الغادية والرائحة بين القارات الثلاث اوربا واميركا وافريقية .

يبلغ سكان جبل طارق اليوم ٢٢ الفاً ماعدا الحامية الانكليزية واهلها مزيج من شعوب اوربا واميركا وآسيا وافريقية وكذلك ابنيتها مزيج من طراز الابنية عند الامم الكثيرة واللغتان الشائعتان هنا الاسبانية والانكليزية . ولا يحق اليوم لغير الانكليزي التبعة ان يقتني ملكاً في هذا المرفأ الضيق النطاق ويراقب الاجانب فيه مراقبة شديدة والمدينة كلها عبارة عن شارع واحد ضيق بُني في الغالب منذ قرنين وعلى مقربة من جزيرة طريف وهي اشبه بقلعة كبيرة مشرفة على البحر .

جئت جبل طارق من غرناطة وانتهيت بالجزيرة الخضراء آخر عمل اسبانيا والمسافة بين هذه الجزيرة وجبل طارق بضع دقائق يجتازها المجتاز على ظهر سفينة .

وعلى بضعة اميال من جبل طارق ترى مدينة طنجة قائمة على البحر في بر العدوة من ثغور الغرب الاقصى واول ارض افريقية يقع نظر الخارج من القارة الاوربية عليها فينتقل السائح انتقالاً فجائياً من مدنية راقية إلى مدنية مشعثة منحطة وليس بين القارتين الاوربية والافريقية الا مجاز صغير كان العرب يسمونه الزقاق .

اغتنمت فرصة انتظار الباخرة الانكليزية التي تسافر من جبل طارق إلى مارسيليا في يومين فزرت طنجة وطوفت في ارجائها وسكانها اليوم نحو اربعين الفاً فيهم كثير من الاسبانيين والبرتقاليين والطليان والفرنساويين وهي من المدن التي استعمرها الفينيقيون

فيما مضى ولا تزال محتفظة بطرازها الشرقي على كثرة ماتداول عليها من الامم بعد الاسلام فقد استولى عليها البرتقاليون سنة ١٤٧١ م والانكليز سنة ١٦٦٢ وحاصرها الفرنسيس سنة ١٨٤٤ وبقيت منذ ذاك الحين في يد المراكشيين وهي الآن مشاع لكل الدول أو تحت حمايتهم ويتنازعها الفرنسيس والاسبان كما يتنازعون على السبق في حماية بلاد الغرب الاقصى . ويقيم فيها كثير من معتمدي الدول والسلاطين المخلوعين من امراء المسلمين في الغرب الاقصى امثال مولاي عبد العزيز ومولاي الحفيظ .

نعم ان المراكشيين مازالوا في هذا الثغر وماوراءه من البلدان على تصلبهم في عاداتهم رغم التيار الشديد الهاجم عليهم من اوربا وهم منها على ثلاث ساعات بحراً لايفصلهم عنها الا بحر الزقاق وبين طنجة والجزيرة الخضراء اثنا عشر ميلاً « وهو اضيق موضع فيه واوسع موضع فيه نحو ثمانية عشر ميلاً » قال الفقيه المرادي المتكلم القيرواني بعد خلاصه من بحر الزقاق ووصوله إلى مدينة سبتة :

سمعت التجار وقد حدثوا   بشدة اهـوال بحر الزقاق
فقلت لهـم قربوني اليـه   انشفه من حـر يوم الفراق
فلـا فعلت جرت ادمعي   فعاد كما كان قبل التلاق

(٢٢) علم المشرقيات في اسبانيا

كان على اسبانيا وتاريخها مرتبط بتاريخ العرب ثمانية قرون ان تكون اول دولة غربية تعنى باللغة العربية ولكنها تعد من الاواخر لان الارتقاء يتبع بعضه بعضاً ولاتنفق امة الا مما عندها ومع هذا حدثنا التاريخ ان اول مدرسة[١] عربية انشئت في طليطلة اوائل القرن الحادي عشر ومن هذه المدرسة نشأت تربية الاسبانيين على مناحي العرب وفي سنة ١١٣٠ انشأ رئيس اساقفة طليطلة مدرسة للتراجمة في هذه المدينة وبها رسخت اللغة العربية والافكار العربية في اسبانيا المسيحية . وكان من نتائج وقعة العقاب ان حررت اسبانيا من رق العبودية للمسلمين وادرك ملوك قشتالة ان ليس من العقل مقاطعة الماضي القديم وانهم في حاجة بعد إلى ان يتعلموا من معلميهم القدماء ومنافسيهم الالداء

(١) مجلة المقتبس المجلد الرابع .

من العرب فحاول الفونس العاشر ان يعمل لاسبانيا المسيحية ماعمله العرب لاعلاء شأن الاسلام وذلك بالاخذ باحسن مافي الحضارتين ومزجهما بالحضارة الاسبانية فأسست سنة ١٢٥٤ في اشبيلية مدرسة عامة لاتينية عربية وحفظ لمدينة مرسية رونقها العربي الصرف واستدعى إلى عاصمته العلماء من جميع الملل والنحل ليؤسس مدرسة طليطلة الثانية وقوامها اختيار احسن المعارف النافعة وهي اقرب إلى التسامح من المدرسة الاولى إذ كانت تجمع إلى التقاليد اللاتينية الحضارة العربية والعلم العبراني .

كان لليهود يد طولى في نقل العلوم من العربية إلى اللاتينية لان المرابطين والموحدين الذين استولوا على الاندلس بعد الامويين كانوا إلى التعصب . بددوا كتب الفلسفة واحرقوها ليرضوا بذلك العامة والفقهاء ولولا تراجم الاسرائيليين لضاع كثير من اوضاع مدنية العرب في الاندلس .

ثم بدا لرجال الدين من الاسبان ان يسعوا في نشر دينهم بين المسلمين فاخذوا يعنون باللغة العربية ليتعلمها الرهبان ويجادلوا مخالفيهم بالبرهان فوضع احد الدومنيكيين اول معجم عربي باللغة الاسبانية سنة ١٢٣٠ وفي سنة ١٣١١ ــ ١٢ امتدح البابا اكلمنضس الخامس في احد المجامع الدينية من انشاء درس لتعليم العربية في مدرسة صلمنكة وفي اواسط القرن الثالث عشر كان الدومنيكيون مثال الغيرة في نشر اللغات الشرقية بين ابناء رهبنتهم ومنها العربية وانشأ صاحب اراغون مدرسة لتعليم اللغات الشرقية في ميرامار وانشأ المجمع الديني في طليطلة ينفق على طغمة من الرهبان مؤلفة من ثمانية اشخاص انقطعوا لدراسة العربية وعلى هذا ظلت الجمعيات الدينية ولاسيما الفرنسيسكانية إلى القرن الثامن عشر في اسبانيا هي القائمة بدعوة المستشرقين إلى درس آداب الشرق ولغاته وتاريخه .

ولم تنل مدرسة صلمنكة شهرة طائلة في اوربا حتى غدت احدى المراكز العلمية الاربعة باريز واكسفورد وبولون الا انها بتأثير العلم العربي اقامت على اساس معقول تعليم العلوم الطبيعية والطب ولم يكن في مدرسة صلمنكة في اواخر القرن الثالث عشر غير خمس وعشرين حلقة للتدريس منها حلقة لليونانية واخرى للعبرانية وثالثة للعربية فاصبحت في القرن السادس عشر سبعين حلقة فيها سبعة آلاف طالب .

ولما اعلن الأسبانيون الحرب على جنسية العرب ومدنيتهم ودينهم ضعفت العناية باللغة العربية ولم يكتف القوم باستصفاء جميع الجوامع وجعلها كنائس بل اخذوا ينصّرون المسلمين بالاكراه وفي سنة ١٥٠١ ـ ٢ طردوا من مملكتي قشتالة وغرناطة كل من ظلوا محافظين على الاسلام ولم يعد للدومنيكيين والفرنسيسكانيين من حاجة لتعلم العربية ليتمكنوا من مجادلة الفقهاء وتخلوا عن علومهم لانها افسدت افكارهم وزهد المسيحيون في علوم المسلمين وقام في اذهانهم انها خطر عليهم .

صدر امر الكردينال كسيمنس سنة ١٥١١ بعد ان احرق في ساحات غرناطة كمية من الكتب العربية ان تباد كتب العرب من بلاد اسبانيا عامة فتم ذلك في نصف قرن ولولا المترجمات منها إلى العبرية واللاتينية لبادت مدنية العرب من تلك البلاد . واخذ ديوان التفتيش الديني على نفسه ابادة كل اثر للعرب وما كان متنصرة المغاربة الذين دانوا بالنصرانية مكرهين ليستطيعوا ابداء اسفهم إلا سراً وفي الكتب العربية المكتوبة بالعجمية أي المكتوبة بحروف اسبانية دليل على تعلق اولئك المتنصرة بقديمهم.

وفي سنة ١٥٥٦ منع فيليب الثاني متنصرة المسلمين من استعمال اللغة العربية وارادهم على ان تنزع من اسمائهم التراكيب العربية وعن اجسامهم الالبسة الشرقية ليمزجهم بزعمه في سواد ابناء المذهب الكاثوليكي ثم طردوا على عهد فيليب الثالث وكان عددهم نحو مليون نسمة على صورة قاسية سخيفة ولم يبق من الحضارة العربية واللغة العربية في اسبانيا غير ذكراهما وزهد القوم في القرنين السابع عشر والثامن عشر في تعليم العربية في اسبانيا اللهم الا على طريقة افرادية وغدا الاطلاع على العربية نقصاً ولربما اتهم من يتعلمها بالالحاد بعد ان كان اهل الطبقة العليا من الاسبان ايام عز العرب يحلون باقوال فلاسفة العرب كلامهم ويدرسون الفلسفة العربية درس مستبصر مستفيد لادرس ناقد عنيد ويعدون الاطلاع على الآداب العربية من امارات الظرف والكياسة .

وعلى هذا لم يبق لمدرسة الفرنسيسكان في اشبيلية من اساليب تعلم العربية الا اثر ضئيل واراد شارل الثالث ان يعيد إلى اسبانيا عهد الآداب العربية فاستدعى لذلك رهباناً موارنة من سورية ليعلموا الاسبانيين لغتهم الاصلية الثانية ويحق للنصف الثاني من القرن الثامن عشر ان يباهي باساتذة متمكنين من اسرار العربية في اسبانيا .

ولما ادخل الاصلاح إلى الكليات القديمة في اواخر النصف الاول من القرن التاسع عشر عادت العربية تدرس في جامعات اسبانيا رسمياً ولما استلمت الحكومة الاسبانية سنة ١٨٥٧ زمام اصلاح التعليم من دون رجال الدين أو الملك أو الاشراف ربحت اللغة العربية حتى كادت تعود اليها حياتها التي كانت لها في شبه جزيرة اسبانيا من القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر فاخذت معرفة اللغات والآداب العبرية والعربية تدخل من تلقاء نفسها في قائمة دروس التعليم العالي واخذ المستعربون ينتفعون من المخطوطات العربية المحفوظة في مكتبة الاسكوريال ومكتبة الامة ومكتبة المجمع العلمي التاريخي ومن المخطوطات العربية المكتوبة بحروف عبرية المحفوظة في كاتدرائية طليطلة. دع مكتبة خزائن كاياكوس وكودرا وريبرا وآسين وغيرهم من رجال المشرقيات.

والعربية اليوم تدرس رسمياً في كلية مجريط وغرناطة وبرشلونة وصلمنكة وبلنسية واشبيلية وغيرها ولكن التدريس فيها مهمل والمدرسون غير كفاة الا في العاصمة وبعض الولايات وقد نشر المستشرقون من الاسبان منذ اواخر القرن التاسع عشر كتباً عربية كثيرة متعلقة بتاريخ الاندلس وتراجم رجاله وبعض العلوم التي اشتغلوا بها ومنها الجيد واكثره مملوء بالاغلاط والتحريف وهو دون ما نشره الهولانديون والجرمانيون والبريطانيون والطليان من هذا القبيل من حيث الصحة والاتقان.

وانت ترى ان الاستشراق العربي كان الدين هو الداعي اليه كما كان في معظم بلاد اوربا ثم امتزج الدين بحب المدنية ثم امتزج كلاهما باسم الاستعمار ولكن المحصول في شبه جزيرة ابيريا أي اسبانيا والبرتقال قليل. وفي جامعة لشبونة عاصمة البرتقال درس عربي اليوم ومدرسه الاستاذ لوبيس الذي نشر بعض الكتب العربية فهو المرجع في البرتقال اليوم كما ان الاستاذ آسين مرجع الاسبان في مجريط وكلاهما عضو في المجمع العلمي العربي.

بقي مبحثان ضاق النطاق عن نشرهما وهما (اسبانيا بعد العرب) و (البرتقال بعد العرب) ننشرهما في كتاب على حدة مع مقالات الاندلس وغيرها.

محمد كرد علي

الانتقاد

والدروس التاريخية في سورية

كتب حضرة الأب هنري لامنس في الجزء الحادي عشر من السنة العشرين لمجلة المشرق مقالاً مطولاً تحت هذا العنوان رد فيه على ردنا عليه في تاريخه المختصر عن سورية مزج فيه ما آخذناه عليه من الاغلاط والمغالطات في تاريخه متوهماً اننا ارتكبنا مثله في مقالات (غابر الاندلس وحاضرها). وانا لنشكره لاعترافه ضمناً باكثر ماوقع له من الشطط والاستقراء الناقص في كتابه الاخير عن الشام وأن لم يصرح بذلك .

وقد تشبث باشياء وتقوّل علينا اموراً إذا كان فيها مايقال في نظره فاللوم يعود على من كتبوها من مؤرخي الافرنج في الاكثر وهم قد استندوا إلى نصوص لاتقبل الانكار . وغريب منه كيف يسلب العرب مزاياهم على ماتقتضيه تعصبات الشعوبية وينال من مؤلفي الغرب الذين انصفوا العرب ويزيف اقوالهم ويتهمهم بامانتهم وعلمهم . وليس الثقة في نظره الا من وثّقه . وهذا ضرب غريب من المماحكة في الحقائق .

فقد قلّل بكتابته من شأن الطبري والبلاذري وابن سعد والاصفهاني وابن الاثير وابن خلدون وابي الفدا من ثقات مؤرخينا ووثق الواقدي ومادسه عليه القصاص والوضاعون ! وطعن بسيديليو وميشو وغيرهما ممن كتبوا على الاسلام والمدنية العربية وقال انه لايركن إلى ماقاله العرب الا إذا قورن بكتابات المؤرخين المعاصرين من اللاتين واليونان والأرمن وقال في مكان آخر « اليونان والسريان والافرنج » وهـذا أيضاً من المغالطة التي نربأ بصاحبنا عن اتيانها .

فان هؤلاء الأعاجم ما كانوا يعرفون عن العرب إلا بقدر مانعرف نحن اليوم عن القطب الشمالي وسكان المريخ فما هذا المرجع البعيد الذي يحيلنا عليه وهو يحتاج على رأيه إلى دراسة خاصة وعلم واسع ! من هؤلاء الائمة الذين يقتدى بهم وفي كل صفحة من كلام المتعصبين نقرأ روح الغرض ؟ فكيف نأمنهم على تاريخنا ومتى كان الغريب أعرف بالدار من صاحبها ؟ واما إذا كان حضرته يريد ان يلقي الشك في

كل ماقاله العرب اللهم إلا ما كان له مساس بالقضايا التي يهمه تأييدها على أي صورة كانت فهذا لايوافقه عليه أقل الناس ذوقاً في تاريخ الامم واحرى بمثل هذا التاريخ الذي يعليه ان يسمّى كتاباً في بث دعوة دينية أو مذهب خاص .

ومن المغالطات أيضاً اصرار الاب لامنس على النيل من صلاح الدين ووصفـــه له بالطمع بزعمه فان صلاح الدين لم يكن خادماً عند نور الدين بل كان أكبر قواده ، وهو فاتح مصر ومبدد شمل الفاطميين بل وفاتح أكثر الشام والجزيرة وجامع شمل المسلمين لتكون كلتهم واحدة لعلمه وعلم جميع من لهم مسكة من العقل في عصره انه إذا وسّد الملك الى طفل تمزقت كلمة الجماعة لامحالة على اننا رأينا صلاح الدين قد احسن الى أولاد نور الدين واعطاهم قلعة جعبرالتي طلبوهاواغضى عن قلعة حلب ولو كتب للملك الصالح ان يعمر لجعله صلاح الدين في دولته كما كان هو في الدولة النورية . والغالب انحضرة المؤرخ لم ينظر الى هذه الاعتبارات واحب ان يرى الفشل بادياً على الدولة العربية لتتمتع البلاد بعدل الصليبيين كما تمتعت من قبل بعدل الروم والرومان .

أما دعواه أن ابن تيمية كان يحكم بالموت على كل من يخالفه في رأيه وكذلك تلميذه ابن قيمّ الجوزية فلا يقوم عليها دليل معقول خصوصاً بعد ان عرفنا حرص ابن تيمية على وقاية أهل الذمة كما ذكر ذلك في الرسالة القبرصية . وإذا افتى بتأديب الكسروانيين فلأنهم خرجوا على السلطان صاحب الوقت وآذوا ابناء وطنهم وعبثوا اذ ذاك بنظام المجتمع السوري ومثلهم بعملهم يقتل في كل شرع وسياسة مهما كانت نحلتهم واسف من بعدهم على ماحل بهم .

وقد آخذنا على قولنا ان المسلمين نحو ٣٠٠ مليون نسمة وادعى ان عددهم لايتجاوز المائتي مليون وانهم آخذون بالاضمحلال في كثير من الجهات الا في البلاد التي سقطت تحت الحكم الأجنبي ولم يُخرِج المسلمين في الصين عن السبعة الى الثمانية ملايين مع أنهم باجماع الثقات نحو الثلاثين مليوناً وقال ان مسلمي مراكش ثلاثة ملايين مع انهـــم زهاء سبعة ملايين . على اننا لم نورد هذا الاحصاء على انه حقيقة لاجدال فيها بل قلنا انهم نحو ثلثمائة مليون كما هو الشائع على ان قلة عددهم أيضاً لاتسمح لحضرة المؤلف ان يطعن في مقدساتهم فسواء كانوا مئة أو مئتين أو ثلثمائة مليون لاتجوّز الآداب التاريخية

أن يعبث باصول يقدسونها في كتاب ينشر في ديارهم . واذا كان لايرضى الاب لامنس الا أن يضعف من أمر المسلمين ويدعي انقراضهم ويروقه استصفاء أرضهم فلنسكت على حواره مرجّعين محوّقلين .

وقد اتهمنا في نقلنا عن الافرنج عدد سكان الاندلس على عهد العرب وما رويناه عن ثروة الناصر وثبت على زعمه أن الصليبيين لم يقتلوا مئة ألف من أهل المعرة واللاجئين اليها . وحجنا بما نُقل عن البلاذري في فتوح البلدان من الأرقام المحرفة بالطبع بشأن سكان قيسارية على عهد معاوية واتخذ من ذلك دليلا على أن مؤرخي الاسلام يروون الأرقام الخرافية إلى غير ذلك مما غالط فيه بدون اقامة الحجة الداحضة ، وعجيب والله من مؤرخ ينكر كل ما يرد من غير طريق أبناء مذهبه او ممن لم يضرب على وتره ، ولا يغتفر لهم زلة واحدة في جانب ألف صواب ويقبل ما يهرف به القائلون بقوله على علاته قضية مسلمة .

هذا ما دار عليه محور المناقشة . اما ما بدر منه خلالها من ألفاظ السخرية فاننا نصون قلمنا عن كتابة مثله لمناقشنا . فقد وسمنا بكولمبس الاندلس كأننا ادعينا اننا نحن اكتشفنا الاندلس في هذا العصر واتهمنا باننا آسفون على كوننا خلقنا في القرن العشرين ولم نخلق في أيام عز الاندلس ونحن لم نورد كلمة تشعر بهذا ولكننا اسفنا على مدنية العرب وندبناها وأهلها ونعينا على أعدائهم أعمالهم وهذا ما لا يروق في نظر دعاة التعصب الديني الذين يضربون كل علم على سندان النحل والمذاهب . ونسب قلة البضاعة في العلم لمن يستشهد بسيديليو وقال اننا طالعنا نيفاً وثلاثين مؤلفاً (بينهم صديقنا سيديليو) وعدة مؤلفين اسبانيين وأخذه الشك في اطلاعنا عليها وادراكنا لمضموناتها وقال اننا أخطأنا في تفسيرنا للنصوص الافرنسية .

وعلى ذلك نجيبه اننا لا نستنكف عن مطالعة أمثال سيديليو والاستشهاد بالجيد من كلامه وان أدى ذلك إلى رمينا بقلة البضاعة وقد طالعنا زهاء ستين مؤلفاً لا ثلاثين في تاريخ الاندلس ولم نطالع شيئاً بالاسبانية اللهم إلا بعض كتابات عربية وشرحها بالاسبانية او ترجمت من الاسبانية للافرنسية فادركنا مضمونها وعساه يبين لنا اوجه الغلط فيها ولا سيما في تفسيرنا للنصوص الافرنسية حتى نشكره على صنيعه علناً . والقول المجرد لا يقنع القارىء المنصف . لاجرم اننا لم ندّع قط ونحن نكتب ونؤلف منذ خمسة

وعشرين عاماً اننا نحسن لغة من اللغات ونحن لا نعرف منها إلا كلمات خلافاً لمن يعرفون بعض ألفاظ من لغة ويدعون الاحاطة بها . والغالب ان حضرة الاب لامنس على طول مقامه في هذه البلاد ودراسته الليل والنهار كتب العرب لم يصل حتى الآن إلى فهم اللغة العربية حق الفهم فضلاً عن أن يكتب فيها فمن أجل هذا لم يفهم ما نكتبه إلا بواسطة المترجمين ونختم هذه العجالة بتقديم الشكر له على حسن ظنه بنا وثنائه على علمنا في آخر مقاله ضارعين إليه سبحانه أن يعلمنا علماً نافعاً نفتتح به صفحتنا للحق ولو كان علينا، ورحم الله من اهدى إليّ عيوبي .

محمد كرد علي



مطبوعات حديثة

المرأة العربية

في جاهليتها واسلامها

تأليف السيد عبد الله العفيفي الجزء الأول طبع بمطبعة دار احياء الكتب العربية بمصر سنة ١٣٣٩ هـ — ١٩٢١ م ص ٢٣٦

اجاد مؤلف هذا الكتاب في وصف المرأة العربية في عهد جاهليتها فذكر نصيبها من الوجود وسمو أدبها ونفاذ لبها وعامة حياتها وفصاحتها وسماحة منطقها إلى غير ذلك من جليل المباحث التي تجلت بها حالة المرأة العربية في الجاهلية والصدر الأول للاسلام بعبارات متينة دلت على تمكن المؤلف من أدب العرب واضطلاعه بموضوعه أحسن اضطلاع وقد أحسن في رد كل نقل لصاحبه وتفسير العويص من ألفاظ اللغة سواء كان كلامه أو كلام القدماء فجاء كتابه كتاب أدب ومنجم بلاغة يستفيد منه مطالعه أجل الفوائد من أقرب الطرق وفق الله هذا العالم إلى اتمام الأجزاء الباقية على هذا الطراز البديع في الوضع والطبع .

م ك

وعشرين عاماً اننا نحسن لغة من اللغات ونحن لا نعرف منها إلا كلمات خلافاً لمن يعرفون بعض ألفاظ من لغة ويدعون الاحاطة بها . والغالب ان حضرة الاب لامنس عَلى طول مقامه في هذه البلاد ودراسته الليل والنهار كتب العرب لم يصل حتى الآن إلى فهم اللغة العربية حق الفهم فضلاً عن أن يكتب فيها فمن أجل هذا لم يفهم ما نكتبه إلا بواسطة المترجمين ونختم هذه العجالة بتقديم الشكر له على حسن ظنه بنا وثنائه على علمنا في آخر مقاله ضارعين إليه سبحانه أن يعلمنا علماً نافعاً نفتتح به صفحتنا للحق ولو كان علينا، ورحم الله من اهدى إليّ عيوبي .

محمد كرد علي



مطبوعات حديثة

المرأة العربية

في جاهليتها واسلامها

تأليف السيد عبد الله العفيفي الجزء الأول طبع بمطبعة دار احياء الكتب العربية بمصر سنة ١٣٣٩ هـ — ١٩٢١ م ص ٢٣٦

اجاد مؤلف هذا الكتاب في وصف المرأة العربية في عهد جاهليتها فذكر نصيبها من الوجود وسمو أدبها ونفاذ لبها وعامة حياتها وفصاحتها وسماحة منطقها إلى غير ذلك من جليل المباحث التي تجلت بها حالة المرأة العربية في الجاهلية والصدر الأول للاسلام بعبارات متينة دلت على تمكن المؤلف من أدب العرب واضطلاعه بموضوعه أحسن اضطلاع وقد أحسن في رد كل نقل لصاحبه وتفسير العويص من ألفاظ اللغة سواء كان كلامه أو كلام القدماء فجاء كتابه كتاب أدب ومنجم بلاغة يستفيد منه مطالعه أجل الفوائد من أقرب الطرق وفق الله هذا العالم إلى اتمام الأجزاء الباقية على هذا الطراز البديع في الوضع والطبع .

م ك

المجلة الهندسية

تلقينا بضعة أجزاء من هذه المجلة لسنتها الثانية وهي مجلة فنية هندسية شهرية تصدر بمصر مديجة باقلام لجنة من أكابر المهندسين المشهورين وقد تصفحنا هذه الأجزاء فوجدناها حافلة بالمقالات الممتعة منها مقالة في قانون حركة المياه ومقالة في النقل الكهربائي ومقالة في الهاتف اللاسلكي ومقالة في فرقعة المراجل البخارية ومقالة في أبطال العلوم والفنون وخطاب شائق لرئيس جمعية المهندسين ومبحث المهندسين الاسلاميين للعلامة أحمد تيمور باشا .

ولا حاجة إلى بيان ما لهذا الفن من المكانة العالية في الشؤون المدنية وما يتوقف عليه من الأعمال العمرانية كتخطيط المدن وانشاء الطرق والسكك الحديدية والتنوير بالكهربائية وتعمير الاسواق والقصور والمطاحن والجسور وجر المياه واصلاح المناجم واستخراج المعادن واتقان الزراعة والصناعة فنحن نثني الثناء الطيب على الأفاضل اصحاب هذه المجلة المفيدة ونود أن تكثر أمثالها في هذه البلاد المفتقرة إليها .

ونحض طلاب الهندسة وغيرهم من الراغبين في توسيع معارفهم على الاشتراك فيها للانتفاع بما تحويه من الفوائد الفنية ونتمنى لها الثبات والرواج . أنيس سلوم

★ ★ ★

سورية ملتقى الامم

لمؤلفه القائد هنري ماميسيه ومعربه السيد نسيب شهاب

طبع بمطبعة الترقي بدمشق سنة ١٩٢٢ ص ٩٣

هذه رسالة في جغرافية سورية وثروتها الطبيعية ومواصلاتها ومناخها وآدابها وعاداتها وأديانها وبعض مسائلها الاقتصادية كمسألة اليد العاملة ورؤوس الأموال والمصارف وكلام على زراعة هذا القسم الذي وقع تحت الانتداب الافرنسي من سورية وعلى صناعته وتجارته وبيان الطرق التي تؤدي به إلى الارتقاء في الزراعة والصناعات والتجارة الى غير ذلك وقد استند المؤلف إلى أوثق المصادر الحديثة في ارقامه وبيان أحكامه ولا سيا تقارير المهندسين والجيولوجيين والمستشارين الفنيين بالمفوضية العليا في بيروت

وقد جاء فيه انه اكتشفت في لبنان عدة آثار تدل على استخراج المستحجرات النباتية. لا تزال تحت الدرس والتجربة لأن منها الجيد ومنها دون ذلك والمعادن التي تستحق الذكر هي في قضاء جزين والمديرج على مسافة خمسة كيلو مترات من محطة المريجات وفي كفر سلول في سلسلة جبل الكنيسة وفي عين طورا قرب مضيق زحلة ويستطاع صنع قرميد من المستحجرات النباتية بواسطة الكربون المائي اللزج الموجود على الضفة الشمالية من نهر الليطاني في مناجم الصخور وقال انه إذا خلطت احجار الحمر في اليرموك بالفحم يستطيع الاهلون استخدامه لايقاد المواقد وفي دمر على مقربة من دمشق حمر يمكن استخراجه ومعدن الحمر في حاصبيا يصدر كميات وافرة بنفقات قليلة . والحديد الفاخر كثير في سورية ولاسيما في لبنـــان وجبال النصيرية وجهات اسكندرونة ومن الممكن اكتشاف ينابيع زيت البترول في بعض الأماكـــن وكثير من الاسفلت في ضواحي اللاذقية والجبص كثير في ضواحي حلب وطرابلس ولوازم البناء والبلور المتحجـــر كثير وفاخر في لبنان خاصة وكذلك الحجارة المعدة للبناء ويكثر الرخام الاحمر والأبيض والاصفر والوردي اللون في شمالي سورية واصقاع دمشق ويستخرج الملح المعدني في جهات سبكة (؟) ومنطقة تدمر ويكثر النحاس في قضاء كسروان واللاذقية والزئبق قرب صوفر والزيوت المعدنية في قضاء كسروان ويكثر في الاسكندرونة وكسروان النحاس والحديد والمغنيسيا والكحل والتوتيا والاسفلت وزيت البترول والذهب والفضـــة والرصاص والحجر الرصاصي (والكروم والبراست) .

والرسالة مفيدة في بابها إلا أن المعرب قد التبست عليه اسماء بعض المواقع والمدن فوضعها على علاتها محرفة عن أصلها ووقعت أغلاط كثيرة في اللفظ والتركيب . وكنا نود لو دفعت امثال هذه المترجمات إلى اناس واقفين على اسرار اللغة عارفين بتهذيب الأغلاط الشائنة فان مايدون يجب ان يكون في الجملة عارياً عن الشوائب قريباً من مناهج الفصحاء والبلغاء حرصاً على اللغة وضناً بالآداب .

محمد كرد علي